"بلاء شمعة"[1] – (1896 – 1945)

يُقال إن دثينة تستأثر دون غيرها من المناطق بنصيب وافر من أدب التراث القصصي والشعري الذي يشكل جزءاً مهماً من حياة السكان وأعرافهم وتقاليدهم، وعُرفت قبائلها بالكرم والشجاعة وحب القتال للدفاع عن الأرض والعِرْض والشرف، وقد جسّدت قصة العشق التي سنتناولها واحدة من أهم ملاحم التراث، وأهميتها تكمن في ما تحمله من مضمون يقربها من الحقيقة ويبعدها عن الخيال الأسطوري، وقد تناولها الشعراء في مساجلاتهم الشعرية، وحرصتُ على سرد وقائع (حرب شمعة) هذه وتفاصيلها بين المياسر وأهل حسنة كما وردت على لسان راويها أحمد مسعود برطم، وبكلماته ولهجته وطريقته في السرد لزيادة المتعة عند القارئ، وبهذه اللهجة أوردها المستشرق كوم رولاند بريج (COM) ROLAND BRIGE الذي سمّى نفسه عمر السويدي في كتاب سمّاه "بلاء شمعة" عام 1905م. وقد زخر الكتاب بطائفة من المفردات والجمل والعبارات بلغة ذلك الزمان، وكانت الحرب تلك قد بدأت قبل صدور الكتاب بعشر سنوات، واستمرت بعد صدوره وانتهاء مهمة هذا المستشرق، حتى العقد الرابع أو الخامس من القرن العشرين، ولكن ربما ضمن مظاهر وتجليات أخرى لها صلة بنعرات الثأر والانتقام كنتيجة لقضية أو بلاء شمعة، وقد أسهمت هذه الحرب في إضعاف القبائل مما أدى الى دخول القوات البريطانية الى دثينة.

وسيلاحظ القارئ بعض الغموض في معاني الكلمات وكثرة التفاصيل وعدم اتساقها، وكذلك كثرة الأسماء وازدحام الحوادث والأحداث التي زخرت بها تلك الحرب التي ضغط عمنا أحمد مسعود روايتها في حيّز ضيّق جداً أرى أنه بحاجة إلى توضيح أكثر على الأقل في ما يتعلق بأصل الحكاية التي كانت السبب في هذه الحرب الطويلة المدى، وبأقل كلمات ممكنة يمكن تلخيص القصة على النحو الآتي:

كانت شمعة امرأة متزوجة شيخاً ينتمي إلى قبيلة المياسر، وكان شاب من آل الحسني على صلة وثيقة بالزوج. لكن طيش الشباب وفتنة النساء لعبا لعبتهما في نسج أحداث هذه القصة. فقد كان المنحوس الحسني في ربيع شبابه وعنفوانه، وكانت شمعة جالبة النحس في ريعان جمالها. وبقليل من مساعدة الشيطان لم يجد الشاب صعوبة كبيرة في إغرائها بالهرب معه من بيت زوجها والزواج به، ولم تمانع شمعة، وقبلت عرضه بالهرب معه بكل جرأة وشجاعة. واتفقا على كل شيء وحددا موعداً لذلك.

[1] البلاء معناه ذروة الحرب.

وفي الحكاية الشعبية يقال إنّ الشابّ عمل للمرأة سحراً أحضره من أحد الشيوخ، هو عبارة عن ورقة مكتوبة أذاب مدادها في زيت، وجاء به إليها لتدهن به رأسها حتى تلبي طلبه وتصحبه في الهرب إلى حيث يشاء. المهم أنها وافقت على الهرب معه، سواء بسبب مفعول الزيت السحري أو مفعول الحب.

كان الموعد بينهما قد حُدِّد عند شجرة العلب (شجرة سدر) في وقت معلوم، وهناك التقيا، ومن هناك أخذها معه إلى بيت خاله الذي رفض قبولهما عنده ونصحهما بالإقلاع عن هذه الفعلة الحمقاء.

بعد ذلك عقد العزم على التمسك بها وعدم التخلي عنها أو عن اتفاقهما الأول، فأخذها إلى بيت صهره الذي قبل بهما عنده مرحباً. ولكنه لم يدخل عليها الا بعد أن طلقها زوجها وتزوجها هو بعد ذلك. وهكذا اندلعت شرارة المعارك التي تحولت إلى حرب بين المياسر وأهل حسنة، واستمرت - كما يقال - أكثر من خمسين سنة، أخذت خلالها الأشعار الشعبية مدىً فسيحاً عبر السنين، معبّرة عن معارك هذه الحرب ووقائعها التي تذكرنا – برغم الفروق في التفاصيل والأسباب والدواعي – بحرب البسوس بين بكر وتغلب، كما ترد تفاصيلها والأشعار التي قيلت فيها بكتاب **الأغاني** لأبي فرج الأصفهاني، أو بحروب طروادة التي كانت بسبب هيلانة مع عشيقها اليوناني.

وهكذا استمرت الحرب بين أهل حسنة والمياسر، وقد قُتل الكثير فيها، وخربت الأرض الزراعية وأُهملت من الحرث. وقد شهدت هذه الحرب كثيراً من المكائد والمؤامرات، وعندما طالت أرسل هادي علي رسولاً إلى مودية وأوصاه بأن يقول بيتاً من الشعر في احتفال يُقام ثاني أيام العيد عند آل عشال، والشاعر من قرية القوز يقال له ابن مطهر، وصل الشاعر إلى الحفل الذي يسمى المحف، ودخل وقال:

يا مودية يا حيد مران العسر[2]

سالت سيول الكور لا بحر العرب

حروا معاقمها تصون أبدانها

يا الكبر الشعبان عكفان الرجب

وفهم امهيثمي ابن الخضر القصد وأجاب:

---

[2] - العسر تعني الصعب.

مانا معي منشار لا الشاقي سرح[3]

يصبح ينذّق بالخشب فوق الخشب

وش بايجر المِيح ذي ماله طرف

عاده سقط في البحر من حيث النشب

ورجع الشاعر بن مطهر إلى الشيخ هادي علي، وقال له: شفه يقول عادكم بادئين الحرب رغم مضي عقود على هذه الحرب.

واستمرت مع حرب البنادق والرصاص حرب أخرى لا تقلّ عنها ضراوة وشراسة، ألا وهي حرب الشعر والقوافي، وفي هذه الحرب شاركت النساء أيضاً حيث ردّت أم محمد وناصر امشيبة على الشاعر ابن رامي علي حين قال:

اليوم يا شمعة شعي شوّاعتش

ظلت عُكفهم[4] فوق عيدان النعوش

لّا كان قرّيتي بحصن امهيثمي

يصرف عليش الوعل عدات القروش

وقد ردّت عليه أم محمد وناصر امشيبة بلسان شمعة بقولها:

يا العبد يا ابن العبد يا ابن الجارية

يا ما قُبل تُقتل وما تُقتل طهوش

مرّان با يُحرب وثُوعة حاربــة

وأهل الكراسي في مطارحكم تُهوش

وكان الشاعر امسعيدي قد مارس دوراً في الفتنة عندما بدأ يهاجم صالح امبدر والد شمعة بقوله:

صالح امبدر لك هذه ولك مثلها

يا شاعر الهِيف شع بنتك محجّب بذوبة

---

[3] - سرح: أي خرج في الصباح.

[4] شعرهم

يا بِر عشال يا كابر عِله كلها

ما يخرجك كان لا كلّن تكفّن بثوبه

يا امصالية في امجبلة تصلّوا غبش[5]

الظهر والعصر كلّن منّكم شلّ كوبة

صابك الله يا الشامخ لبيس العجي

كتّيت مرّان من رأسه لأسفل شعوبه

وردّ عليه صالح امبدر بقوله:

قال بر بدر لا بنتي قصر شرعها

يا ما نساوين تعمِد من قفاهن مصوبه

قال بر بدر جتنا أبيات لبر امسعيدي

واختجلنا ولكن الخضر مد ثوبه

خذت سالم ومشبح وبر عبد الولي

طعِمتهم مثل ما طعم العسل من طنوبه

قال بر بدر ما أنا شي قبيلي دلي

قد خذت الأوعال ذي في الفج محمي دروبه

يا عمر حنّت الغدرة وخيّل لها

من حيد مرّان للكنديل إلى حيد ذوبة

[5] الصبح

4

قرية ذوبة

واستمراراً للمساجلات الشعرية قال الشاعر والعاقل بن بدر:

حمبلي ضرب ساعة من ثنعشر مية

وش بَاله المال يا أهل المال ذي تكسبونه

قل لعمك علي يا امجعلي بر عوض

عاد البـلاء لاح برّاقة وتُرخـي مزونـه

لا تجرجر[6] ونحن عاد شـي جرجرة

رع من قتـل يحفروا لحده وبا يقبرونـه

والفسـالة[7] شـعوها لا القبيلي فسـل

ما عاد في مجلـس النـاموس با يحسـبونه

يـا لويمـاه دي لوّم بكـم سـعفكم

نـاصر علي ذي يسي المنكر ولا تنكرونـه

حن يا القلب ما أحسن قتل حال العرب

وما أحسن الحب يا أهل الحب ذي تسعرونه

ومن القصائد التي اشتهرت:

يا خزين البنادق وش معش من خبر

---

[6] تكلم كثيرا

[7] الجبن من الجبانة

با تخبّرش من حسين امجعلي وبر هادي

ليش با احسب بقر ما با توقف لنـا

ما بحسب إلا إن كان دي يصبح يضامد عنادي

وبعد الانتهاء من الحديث عن حرب شمعة، قال أحمد مسعود: اقرأوا الفاتحة على روحهما.